الشعر الجزائري القديم في ظل الدولة الموحدية القصيدة المدحية أنموذجا

Ancient Algerian poetry under the Almohad state The praise poem is a model

أحمد فجر*

تاريخ الإرسال: 2023/06/27	تاريخ القبول: 2023/08/14	تاريخ النشر: 2023/12/31

الملخص:

بما أن الشعر هو المرآة العاكسة للحياة، فإن الشعراء في الدول المغاربية ظلوا يسبحون في تيار فلك الفكرة الموحدية، مجسدين طموح المهدي بن تومرت الذي أراد التأسيس لإمبراطورية جديدة، وكيان موحد لبلاد المغرب العربي.

وقد اهتم الخلفاء الموحدون بالشعر وفنونه، فشجعوا أهله بكل أنماط الدعم، خدمة للمشروع السياسي والمذهبي والعقدي، فراج نتاج الشعراء وتنوعت أغراضهم.

فدبجوا مدائحهم بألوان الخطاب الشعري العقدي، مغتنمين كل فرصة متاحة للتذكير بقدسية الثلاثية التي قامت عليها فكرة الدولة ألا وهي: الإمامة والمهدية والعصمة، وكل ذلك مندرج ضمن الدعاية السياسية والمذهبية لمشروع الدولة وتوسعها في بلاد المغرب العربي، وحلمهم بالوصول إلى ما وصلت إليه الدول السابقة.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائري القديم، الدولة الموحدية، قصيدة المدح.

summary

Since poetry is the mirror that reflects life, the poets in the Maghreb countries kept swimming in the stream of the Almohad idea, embodying the ambition of Al-Mahdi ibn Tumart, who wanted to establish a new empire and a unified entity for the Maghreb.

* جامعة يحيى فارس –المدية ahmedfedjer@gmail.com

Almohad caliphs cared about poetry and its arts, so they encouraged its people with all kinds of support, in service of the political, doctrinal and doctrinal project, so the production of poets and their purposes varied.

So they infused their praises with the colors of dogmatic poetic discourse, seizing every available opportunity to recall the sanctity of the tripartite on which the idea of the state was based, namely: the Imamate, the Mahdiyya, and the Infallibility.

All of this is part of the political and sectarian propaganda of the state's project and its expansion in the countries of the Maghreb, and their dream of reaching what previous countries have reached

Keywords: ancient Algerian poetry, Almohad state, praise poem**.**

*** *** ***

المؤلف المرسل: أحمد فجر ahmedfedjer@gmail.com

تمهيد

يبدو أن الفنون التي شهدتها ساحة الشعر في الجزائر الموحدية لم تكن لتشذ عن باقي البقاع العربية مشرقا ومغربا، إذ سادت أغراض المدح والرثاء والهجاء والغزل والزهد...

غير أن الغلبة والشيوع تكون دائما لأنواع تلتزم بخدمة المشاريع الجديدة، وأقصد هنا دولة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي، الذي ترعرع في بيئة علم وثقافة وأدب وشعر، فنظم الشعر وأحب أهله، ومن عادة القادة الجدد والأمراء، أن تكون نفوسهم تواقة إلى الإشادة بخصالهم وإنجازاتهم السياسية والعسكرية.

لذلك برز في الساحة شعراء كثر - على اختلاف أغراضهم ونياتهم - فأظهروا محبة الأمير عبد المؤمن، وكانت أنفسهم راغبة في امتداح شخصه الكريم.

وكما قيل: " قواعد الشعر أربعة: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب: فمع الرغبة يكون المدح والشكر..." [1]

وقد مر المدح بمحطات عديدة في تاريخ الأدب العربي، فمعانيه في صدر الإسلام، وزمن الخلافة الراشدة، ليست نفسها التي طرقها الشعراء في العصور اللاحقة.

فالرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، ومن تربوا في مدرسته، يمقتون كل أشكال المدح التي تؤدي بهم إلى الغرور أو حب النفس وغيرها من علل النفوس.

لكن بعد ظهور الأحزاب السياسية ونشأة الدول والعصبية، صار لكل جماعة ثلة من الشعراء تذود عن المبادئ والأفكار.

" وقلما كان مبدأ الإسلام في غير النبي من حيث الاهتداء بهديه ونشر الحق على يديه، وكان خلفاؤه يأنفون مدحهم بما تُزهى به نفوسهم تواضعاً.

ثم استرسل الشعراء فيه وقبل ذلك منهم الخلفاء، إلى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة وتفخيم مقام الخلفاء والولاة والإرشاد بعظمتهم "[2].

فظل غرض المدح سيد الفنون الشعرية على مر الدهور، يستعين به القادة والأمراء لبسط نفوذهم، فيشجعون أهله لترويج نتاجهم وإذكاء روح التنافس بينهم.

01- شعراء المدح والإمام المهدي

لقد نال المدح حصة الأسد، نظرا لتصوير الشعراء لحركة الأمراء والولاة في فتوحاتهم وانتصاراتهم، سواء في الأندلس أو الحروب الداخلية في المغارب الثلاث، أو بمدح الدعوة الجديدة ودعمها وتذكر قائدها الروحي، الإمام محمد المهدي.

ومما نظمه شعراء الجزائر في تلك الحقبة، أبيات لشاعر بجائي وقف على أطلال قبر المهدي فأنشد قائلا: [3]

سلام على قبر الإمام الممجد سلالة خير العالمين محمد

ومشبهه في خلقه ثم في اسمه وفي اسم أبيه والقضاء المسدد

ويفتح الأمصار شرقا ومغربا ويملك عربا من مغير ومنجد
وتتبعه للنصر طائفة الهدى فأكرم بهم إخوان ذي الصدق أحمد

فكلمات القصيدة مناسبة لحقل دلالي مرتبط بخطاب مذهبي وعقدي ينبيء عن مدى تعلق شعراء الجزائر بالمهدي وتقديسهم لشخصه وارتباطهم بفكره وحلمهم بتوسع فتوحات دولته، لتعم خلافته كل بلاد المسلمين.

وقد قابل خلفاء الإمبراطورية الموحدية هذه الحركة الشعرية، بالإحسان والحفاوة العظيمة، خدمة للعقيدة والفكر السياسي وتشجيعا للحراك الثقافي.

"وقد أثرت العقيدة في الأدب الموحدي عموما ... ولما كان الشعراء مرتبطين بالحكام ساعين لإرضائهم، فإن هؤلاء قد حرصوا على ترسيخ هذا الأثر وتعميقه بتشجيع الشعر الذي يسير في هذا الاتجاه وإهمال غيره، مما أدى إلى حدوث تشابه كبير في الشعر عند الموحدين بالمغرب والأندلس معنا ومبنى "[4].

ويبدو أن الثقافة الواسعة التي تمتع بها حكام الدولة، زادت من تنافس الشعراء أثناء حضورهم للمجالس الأدبية أو الاحتفالات الرسمية.

"وهناك عامل آخر مهم ساهم في انتشار غرض المدح وبروزه في هذه الحقبة، ألا وهو الثقافة العالية التي كان يتمتع بها الخلفاء الموحدون، ولاسيما في ميدان اللغة العربية وعلومها " [5].

وهذا القول ينطبق على المهدي المؤسس الفقيه السوسي، الذي تشبع بالثقافة العربية في رحلته المشرقية الطويلة، وعبد المؤمن بن علي التلميذ الفطن الحاذق، الذي ملأت أخبار مناظراته وآرائه وملاحظاته، كتب التاريخ والأدب ومصنفات التراجم، لتدل على حس نقدي ونهم معرفي وذوق أدبي.

02- الإشادة بعبد المؤمن

إن سيرة القائد عبد المؤمن واضحة في هذا الباب، إذ لم تشغله مسيرته السياسية ونشاطاته العسكرية، عن الخوض في غمار الحياة الثقافية والحركة الأدبية،

انطلاقا من الخطب الحماسية لتحريك الهمم وتفعيلها ونظم الشعر وتذوقه، إضافة إلى نقده للأعمال الشعرية في حضرته كاليوم المشهود عند عبور المضيق إلى الأندلس.

أما فتحه لبلاد إفريقية وتحرير تونس وما بعدها من رجس النصارى،فقد كانت أياما ناصعة في حياته، إذ مدحه الشعراء جزاء هذا الفتح وتنافسوا في نظم القصائد.

منهم أبو محمَّد عبد الله بن أبي العباس **التيفاشي**- من شرق الجزائر- ومرة أخرى يفرض أهل هذه البلاد حضورهم في الساحة الأدبية وذلك من خلال بيت واحد في مطلع قصيدة، اهتزت مشاعر عبد المؤمن لما سمع هذا البيت :[6]

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فقال عبد المؤمن: لا ينشد بعده شيئا، وأعطاه ألف دينار.

ولكن المتأمل في نتاج أهل الجزائر في الشعر السياسي، يجده قليلا نوعا ما –رغم حضوره- مقارنة بالحواضر القريبة من عاصمة الخلافة مراكش، نظرا لاطلاعهم على كل طاريء في القصر الموحدي .

03- القائد الشاعر

لعبد المؤمن محاولات شعرية، ومما نظمه هذا القائد لاستنهاض الهمم واستنفار العرب إلى الغزو بجزيرة الأندلس، أبيات مفعمة بالحماس وعبارات الحراب والقتال حين أنشد قائلا:[7]

أقيموا إلى العلياء هُوج الرَّواحل وقودوا إلى الهيجاء جُرْد الصواهلِ
وقوموا لنصر الدين قَوْمة ثائرِ وشُدوا على الأعداء شدة صائلِ
فما العز إلا ظهر أجردَ سابح يفوت الصَّبا في شده المتواصلِ
بني العم من عُليا هلال بن عامر وما جمعت من باسلٍ وابن باسل

فاستطاع الشاب الملهم بحنكته السياسية وأعماله العسكرية، أن يستقطب العرب الهلاليين ويجعلهم من كبار قادة جيشه، مخاطبا إياهم بوشائج الدم والنسب والعصبية حتى يستعين بهم في الجبهة الأندلسية.

04- مدح المعارك

يحضر في المشهد هنا أيضا شاعر من آشير الجزائرية، هو عمر بن **الأشيري** ليخلد ذكرى انتصارات الموحدين، ودور العرب في الغزوات الأندلسية، إذ أنشد قائلا: [8]

دارت رحا الهلكات بالسبطاط	**وسطا بها ريب الزمان الساطي**
وأهين فيها الشرك أي إهانة	**شفعت كريه هياطها بمياط**
جيش من العرب الذين إذا غزوا	**كووا الأعاجم في الطلا بعلاط**
قوم إذا شمخ العناد بأنفه	**وضعوا السيوف مواضع الأسواط**

ويمتدح الشاعر العرب هنا أيضا، ليبرز مكانتهم في هرمية الجيش الموحدي في بلاد المغرب والأندلس، كما يحضر معجم الحرب بقوة في هذه الأبيات، التي أرخت للتوسع الموحدي في بلاد الأندلس.

05- شاعر طبيب يمدح الأطباء

نجد في الساحة الأدبية، الشاعر الطبيب **ابن البذوخ**[9]،الذي كان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة، والمركبة، وله اعتناء بعلم الحديث، ومعتنيا بالكتب الطبية والنظر فيها وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها.

ومن شعره الذي يمدح فيه الأطباء قوله: [10]

أكرم بكتب لجالينوس قد جمعت	**ما قال بوقراط والماضون في القدم**
كديسقوريدس علم الدواء له	**مسلّم عند أهل الطب في الأمم**
فالطب عند ذين مع بقراط منتشر	**من بعدهم كانتشار النور في الظلم**
بطبهم تقتدي الأفكار مشرقة	**ترى ضياء الشفا في ظلمة السقم**

لا تبتغي في شفاء الداء غيرهم فإن وجدانه في الطب كالعدم
لأنهم كملوا ما أصلوه فما يحتاج فيهم إلى إتمام غيرهم
إلا الدواء فما تحصى منافعه وعده كثرة في العرب والعجم
عد النجوم نبات الأرض أجمعها من ذا يعد جميع الرمل والأكم

إذن هذا نموذج آخر يدل على شغف الجزائريين بالشعر، فحتى أهل الطب منهم أرادوا تسجيل حضورهم في الساحة الشعرية.

06- القاضي الفقيه ينتصر للمنصور

أما فئة القضاة والشعراء الفقهاء، فيمثلهم الشاعر الأديب **ابن مروان التلمساني** الظاهري **-ت 651 هـ-** [11]

حيث امتدح الخليفة الناصر، مبرزا فضائله وعدله ونصره لدين الله، ومساهمته في تطوير المسيرة العلمية وتأييده للمذهب الظاهري الذي كان الشاعر من أنصاره، حيث كان مذهب ابن حزم منافسا لأهل الفروع من المالكية آنذاك.

واخترنا من شعره هذه الأبيات: [12].

أسيدنا يا ابن الإمامين أمركم منوط بأمر الله ما عنه معدل
نُصرتم لأن الحق آن ظهوره وناصره في الله ماكان يخذل
أزلتم على ما ينفع الناس جهلها وعلمتم في الدين ما كان يجهل.
قطعتم فروعا قد أضرت بأصلها. ألا هكذا من كان بالعدل يشمل
أقم إن تسر نحو الممالك راحلا. فساكنها شوقا لعدلك يرحل.

ومن خلال هذا الشاهد نلحظ توظيف الكلمات الدينية ذات التوجه الموحدي السابحة في فلك مؤسسات الخلفاء والأمراء الجدد.

فالسيد تشير إلى أبناء عبد المؤمن من الأمراء وقد اهتمت بهم المنظومة الموحدية فكونتهم في شتى الميادين كي يمثلوها أحسن تمثيل.

أما الإمام فهو لقب عرف به المؤسس المهدي بن تومرت ثم صار من المصطلحات المقدسة في أعراف الدولة .

في حين نجد الحق والنصر والعدل أيضا وهي من الشعارات التي كان الخلفاء يُمتَدحون بها لإبراز مكانتهم وتميزهم عن باقي الخلفاء.

وفي الأخير يشيد الشاعر بالأمراء الموحدين لتعليمهم الناس الدين الصحيح، وإنقاذهم من الجهالة.

وشكر جهودهم مقابل استبدال الفروع التي كانت دولة ابن تاشفين توليها بالغ الاهتمام، ليحل محلها مذهب الظاهر والتركيز على الأصلين: الكتاب والسنة.

تلك إذن بعض ملامح الخطاب الديني/العقدي في نتاج القصيدة المدحية ترجمته العبارات الموحية التي تخيرها الشاعر باقتدار.

وقبل أن نختم هذه الورقة البحثية التي فتشت عن بعض شواهد المتن الشعري في الجزائر الموحدية- المتناثر في كتب التاريخ والأدب واللغة والتراجم- حري بنا أن نبسط القول عن الشاعر الأمير أبي الربيع سليمان الموحدي، الذي وصل إلينا ديوانه المكون من سبعة أبواب.

هذا الديوان الذي افتتحه صاحبه بالمدح، وكانت معظم قصائده المدحية بالطبع موجهة للخليفة الملهم المنصور الذي لقب عصره بالذهبي.

07- تجربة الأمير أبي الربيع في المدح

يمثل الأمير سليمان الموحدي شخصية الأمير الكومي الندرومي الجزائري الذي لم تمنعه مشاغل القيادة والحكم من الإدلاء بدلوه في نظم الشعر.

إنه الشاعر الجزائري الذي حكم ولاية تلمسان و كذلك بجاية – ووالده كان واليا عليها -، وهما حاضرتان من حواضر العالم العربي والإسلامي، فتلمسان تذكرنا بالزيانيين، وبجاية بالحماديين، والموحدون كانوا حلقة وصل بينهما.

وسنجده من الشعراء القلائل الذين جمعت قصائدهم في ديوان واحد، خلال حكم الدولة الموحدية لبلاد المغرب والأندلس.

الموضوعات	92 قصيدة	148 مقطوعة	عدد الأبيات1532
النسيب	56	36	634
المدح	14	08	267
الألغاز	04	52	250

جدول لبعض الموضوعات الشعرية في ديوان أبي الربيع

إذن نسبة غرض المدح في الديوان مهمة، حيث بلغ عدد القصائد المدحية أربع عشرة قصيدة من مجموع اثني وتسعين قصيدة.

"والمتصفح للديوان يجد في الأمداح مستوى عاليا، وقصائده التي نظمها في المنصور، تعد في الدرجة الأولى..." [13]

وهذا التألق لم ينتج من فراغ، وإنما أفرزته أدوات مساعدة وفعالة، وعناصر وظفها الشاعر في مستويات يكمل بعضها بعضا.

نجد في هذا الباب قصائد متنوعة، وأول قصيدة تدل على الفتن التي عانت منها حواضر المغرب العربي في عصر الموحدين وهذا هو النموذج الأول من ديوان أبي الربيع سليمان الموحدي، الذي نظمه في فتح قفصة بعد دحر ابن غانية في بجاية سنة 583هـ، فأنشد قصيدة مطلعها هذه الأبيات: [14]

هبّت بنصركم الرياح الأربع ... وجرت بسعدكم النجوم الطلّع

وأتت لعونكم الملائك سبّقا ... حتّى لذاق بها الفضاء الأوسع

لله جأشك والصّوارم تنتضي ... والخيل تردي والأسنّة تشرع

أخليفة الله الرّضيّ هنئته ... فتحا يمدّ بمثله ويشفع

ولقد نظم الشاعر قصيدته الطويلة هذه، في أربع وثلاثين بيتا مخاطبا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور الذي يمثل العصر الذهبي للموحدين، حيث استهل الأمير قصيدته بخطاب مدحي مباشر إلى المنصور دون مقدمات طويلة.

ومن خلال هذه الأبيات المنتقاة، التي هنأت الخليفة المنصور بفتحه، نلحظ قوة في الألفاظ، وحسن اختيار للبحر والوزن الملائم للموضوع.

حيث فضل نظم قصيدته هذه من بحر صاف ألا وهو الكامل المكون من تفعيلة واحدة هي: متفاعلن.

ولم يكن اختياره سهللا أو اعتباطا، بل من منطلق الموضوع الذي نظم فيه.

" وبحر الكامل التام ثلاثون مقطعا، ولكنه لا يجيء تاما في الغالب، وهو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات " (15)

والمتأمل في معاني كلمات الشاعر، يجد ارتباطا وثيقا بين حركات بحر الكامل في قصيدة "**هبّت بنصركم الرياح الأربع**" وسرعة حركة الخليفة مع جيشه في الفتح.

فكلمات مثل: **الرياح والنجوم والملائك والفضاء والصوارم والأسنة** ...كلها أدت مدلولا واحدا يعكس شخصية المنصور، وتجربة الأمير الشاعر سليل البيت الموحدي.

"والعروض الطويل تجد فيه أبدا بهاء وقوة، وتجد للبسيط بساطة وطلاوة، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد، وللخفيف جزالة ورشاقة..." (16)

لذلك فقد وفق الشاعر أيضا في توظيف ألفاظ مفعمة بجلجلة قوية مثل: "هبت، رياح، جرت، سبّقا، الخيل، ..." عكست لنا الحالة الشعورية للأمير الناظم، المصور لفتوحات المنصور وانتصاراته.

خاتمة

لا يخفى على عاقل أهمية التطابق والتلاقح بين الأدب والسياسة، لذلك ظل معظم الملوك والحكام على مر الأعصار والأمصار، يقرّبون الشعراء ويشجعون نظمهم في

غرض المدح السياسي، وما كانت لتشذ فترة الموحدين عن هذه القاعدة، حيث وجدنا نماذج من قصائد مدحية في الجزائر عصرئذ.

وتعكس الشواهد المنتقاة أيضا طبقات المجتمع المتباينة التي خاضت غمار تجربة النظم في القصيدة المدحية.

وأقصد هنا الخلفية والطبيب والقاضي الفقيه، وختاما الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الكومي الموحدي، الذي خلف لنا ديوانا تزينت به خزانة الشعر المغاربي القديم.

الهوامش:

1- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل، لبنان، ط5 /1981.ج1، ص: 120.

2- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تح: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت. د.ط.ت، ص: 132/2.

3- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح: صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية لبنان. ط2006/1. ص:142.

4- حسن جلاب، الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب، المطبعة الوطنية المغرب، ط1995/3. ص: 55.

5- ينظر: علي كردي، الشعر العربي بالمغرب في عصر الموحدين، دار الكتب الوطنية الإمارات ط2010/1، ص: 15.

6- مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. تح: خيالي، دار الكتب العلمية لبنان، ط2003/1، ص: 154/2.

7- عبد الواحد المراكشي، المعجب، مرجع سابق، ص:166.

8- صفوان بن ادريس، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر. تع: عبد القادر محداد لبنان، 1939، ص: 60.

9- عمر بن علي بن البذوخ، ت 575هـ أبو جعفر، القلعي، نسبة إلى قلعة بني حماد. توفي بدمشق. ينظر: نويهض: مرجع سابق، ص :53.

10- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، مكتبة الحياة لبنان، د.ط.ت، ص:629.

11- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:105.

12- ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة تح : الأبياري، دار المعارف، مصر-د ط ت-، ص:31.

13- سليمان بن عبد الله الموحد، ديوان الأمير أبي الربيع، تح: محمد بن تاويت الطنجي وآخرون. منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، المغرب د.ط ت، ص:09.

14- ديوان الأمير، ص: 20.

15- عبد الله المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الآثار الإسلامية، الكويت ط1989/2، ص:302/01.

16- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: ابن الخوجة، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ط1986/3، ص:269.